موسوعة تاريخ مصر

مصر الإخشيدية



إعداد: هشام الجبالي



مرحبا بأصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر.

أسمى «نيل» وُجِدّت منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباءكم فى مسيرة العمل من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ماهو مصرى فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقى والتحضر، أعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة «تاريخ» كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات «تاريخ» وحوادث مصر وأخبارها.

موسوعة تاريخ مصر

المحـــرر : هشام الجبالى	**الجمع التصويرى** : المكتب العربى للمعارف
الرسوم الداخلية : علاء حجــــازى	**الإخراج** : المكتب العربى للمعارف
هانى طه - إيهاب وصفى - حنان فتحى	**رقم الإيداع** : ١٩٩٤/٥٤٤١
المراجعة اللغوية : شوقى هيكل	الترقيم الدولى : I.S.B.N: 977-276-018-5

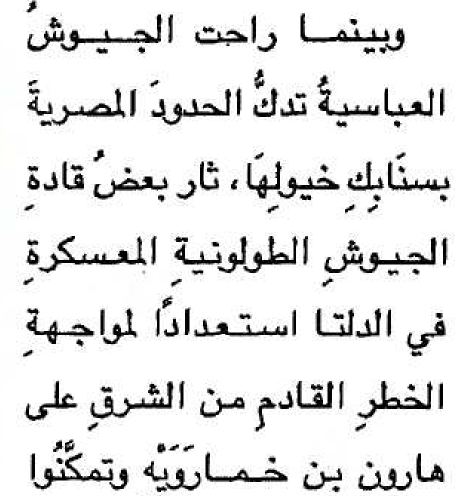
مصر الإخشيدية

إعداد: هشام الجبالي

موسوعة التاريخ المصور

في عهدِ أبى الجيشِ خُمَارَوَيْه بْنِ أحمدَ بْنِ طُولُونَ بلغت الإمبراطوريةُ الطولونيةُ قمةَ درجاتِ رقيِّهَا وقوَّتِهَا ، فقد ورث خمارويه عن أبيه ملكًا شاسعًا وإمبراطوريةً فتيةً تحاولُ أن تصنعَ لنفسِهَا مكانةً متميزةً وسط أممٍ وممالك العالمِ، فأضاف لها بانتصاراَتِهِ على الجيوشِ العباسيةِ في الشرق ووُقُوفِهِ في وَجْهِ الأطماعِ البيزانطيةِ في الشمالِ الغربىِّ المزيدَ والمزيدَ من القوةِ والمنعة ، وهيَّأَ لمصرَ مركزَ إمبراطوريَّتِه بإصلاحَاتِهِ المتتابعةِ وما امتلأ به عهدُهُ من ثراءٍ ووفرةٍ المناخَ الملائمَ للانطلاقِ على طريقِ الرقىِّ والتقدم شوطًا من بعدِ آخَرَ ، وفي أَوْجِ أفراحِ القطائعِ عامَ ٨٩٦ تُوُفِّيَ خُمَارَوَيْه لتتجمَّعَ حولَ جَسَدِهِ وقد فارقه نبضُ الحياةِ أسبابُ انهيارِ وسقوطِ الإمبراطوريةِ الطولونيةِ وتتضافرَ في سرعةٍ مذهلةٍ بين إخوةٍ أقوياءَ قادرين على تحمُّلِ تبعاتِ الحكمِ ومشاقِّه لكنهم لايتمتعون بشىءٍ يذكرُ من النفوذِ والسلطانِ، وأبناءٍ صبيةٍ لاقدرةَ لهم ولادرايةَ ، وقادةِ جيوشٍ كانت تقيِّدُ أحلامَهُمْ وأطماعَهُمْ في الثراءِ والسيطرةِ صرامةُ مَنْ كان يجلسُ على العرشِ الطولونىِّ، والذى ما إن رحل حتى أسرع أكثرُهُمْ يعارضون مبايعةَ أحدِ الإخوةِ الأقوياءِ ويسعَوْنَ إلى مبايعةِ أكبرِ الأبناءِ الصبيةِ، ليجلسَ أبو العساكرِ جيشُ بْنُ خمارويه على عرشِ الإمبراطوريةِ صبياً لم يتجاوزِ الرابعةَ عشرةَ من عُمْرِهِ .

ومع بدايةِ حكمِ جيش دَبَّتِ الفُرْقَةُ وساء التنازعُ بين القادةِ والجنودِ الطولونيين ، فلم ينته عامُ ٨٩٦ إلا وقد قُتِلَ جيشُ وبُويِعَ أخوه الأصغرُ هارونُ بْنُ خمارويه حاكمًا للإمبراطوريةِ التى أخذت شيئًا فشيئًا في التفكُّكِ والانهيارِ، حتى إذا ما سيطر المكتفى حاكمُ الدولةِ العباسيةِ على أغلبِ أقاليمِهَا الشرقيةِ أسرعَ يُعِدُّ جيوشَهُ بقيادةِ ابنِ سليمانَ الكاتبِ عازمًا على غَزْوِ مصرَ نَفْسِهَا والاستيلاءِ عليها .

وبينما راحت الجيوشُ العباسيةُ تدكُّ الحدودَ المصرية بسنابكِ خيولِها، ثار بعضُ قادةِ الجيوشِ الطولونيةِ المعسكرةِ في الدلتا استعدادًا لمواجهةِ الخطرِ القادمِ من الشرقِ على هارون بن خمارَوَيْه وتمكّنُوا من قَتْلِه ومبايعةِ شيبانَ بْنِ أحمدَ بْنِ طُولُونَ أميرًا على مصرَ عامَ ٩٠٤، وعلى الرغمِ من ضعفِ وتخاذُلِ الجنودِ والقادةِ الطولونيين وقفت جموعُ الشعبِ المصرىِّ في وَجْهِ ابْنِ سليمانَ الكاتبِ وجنُودِه مدافعةً عن كلِّ مانالته من مكاسبَ وكلِّ ماحققته من إنجازاتٍ وتقدمٍ فى عهدَىْ أحمدَ بْنِ طولون وخمارويه، وحتى بعد أن قرَّرَ شيبانُ التسليمَ والنجاةَ بحياتِه وحياةِ أهْلِه من بطشِ الجيوشِ العباسيةِ واصل المصريون دفاعَهُمْ في استبسالٍ عجيبٍ، فلم يتمكَّن ابْنُ سليمانَ الكاتبُ من دخولِ الفسطاطِ إلا بعد أن تكبَّدَتْ قواتُه على وفرةِ أعدادِها وعدَّتِها خسائرَ فادحةً جعلته يستخدمُ أقصى درجاتِ القسوةِ في محاولَتِه القبضَ على زمامِ الأمورِ والقضاءَ على كلِّ صورِ المقاومةِ المصريةِ مما أدَّى إلى تخريبِ مدينةِ القطائعِ عاصمةِ الطولونيين وعروسِ المدائنِ الإسلاميةِ وإحراقِ أجزاءٍ واسعةٍ من مدينتى الفسطاطِ والعسكرِ .

وبعد أن تمكَّنَ ابْنُ سليمانَ الكاتبُ من القضاءِ على مقاومةِ المصريين لجيُوشِه مكَثَ في الفسطاطِ مايقربُ من أربعةِ أشهرٍ يعيدُ تنظيمَ إدارةِ مصرَ بما ييسِّرُ للعباسيين السيطرةَ عليها قبل أن يرحلَ إلى بغدادَ حاملاً معه كلَّ ماحصل عليه من كنوزٍ

الطولونيين ومقتنياتِهِمْ وفي رَكْبِهِ جميعُ من تبقَّى من جنودِ وقادةِ الجيوشِ الطولونيةِ لإبعادِهِمْ عنها ، ومن بين هؤلاء القادةِ كان صقرُ المصريين محمدُ بْنُ عليٍّ بْنِ الخليجِ الذى ثار لما وقع بأَهْلِهِ من تنكيلٍ وما نال بلادَهُ من تخريبٍ على أيدى الجنودِ العباسيين، وراح يبثُّ ثورَتَهُ بين صفوفِ الجنودِ والقادةِ الطولونيين الذين سرعان ما استجابوا له وانفصلوا عن الركبِ العائدِ إلى بغدادَ لينطلقوا خلفَ صقرِ المصريين صَوْبَ أرض الدلتا عازمين على تخليصِ البلادِ من الحكمِ العباسيِّ.

وفى مصرَ لم يَكَدْ عيسى النوشريُّ أولُ ولاةِ بنى العباسِ بعد سقوطِ الدولةِ الطولونيةِ يستقرُّ على كرسيِّ ولايَتِهِ حتى كان عليه أن يواجِهَ ابْنَ الخليجِ وجنودَهُ ، ولكنَّ التفافَ المصريين حولَ صَقْرِهِمْ وتطوُّعَهُمْ في صفوفِ جَيْشِهِ حسم الأمرَ وقاد ابْنَ الخليجِ إلى الانتصارِ على الوالى العباسيِّ والسيطرةِ على مدينةِ الفسطاطِ، ومن بغدادَ أسرع المكتفى بإرسالِ المدد العسكريِّ لمساعدةِ عيسى النوشريِّ في القضاءِ على ثورةِ ابْنِ الخليجِ الذى استطاع بمساعدةِ وتأييدِ جموعِ المصريين أن يلحق الهزيمةَ بالعباسيين ويمدَّ سيطرَتَهُ على أجزاءٍ كبيرةٍ من الأراضى المصريةِ، حتى إذا ما أدرك المكتفى مدى الخطورةِ التى أصبح يمثِّلُهَا ابْنُ الخليج ومدى ماصار يتمتَّعُ به من قوةٍ وسلطانٍ ، أسرع يرسلُ إلى مصرَ خيرَةَ قوَّاتِه البريةِ وأساطيلِهِ البحريةِ التى تمكَّنَتْ بفَرْطِ قُوَّتِهَا وكثافةِ أعدادِهَا من كسرِ انتصاراتِ المصريين والقبضِ على صَقْرِهِمُ الثائرِ بعد أن استقلَّ بحكمِ البلادِ نحوَ سبعةِ أشهرٍ وعشرين يومًا عادت مصر بعدها إلى الحظيرةِ العباسيةِ من جديدٍ.

تركتُ بلادَكُمْ في آخر ماحدَّثْتُكُمْ عنه من زياراتى لها عَقِبَ فشلِ ابْنِ الخليج ورحت أواصِلُ رحلاتى التى

لاتنتهى بين جهات الأرضِ الأربعِ حتى أفضى بى التجوُّلُ المستمرُّ إلى بلادِ الأندلسِ ومنها إلى شمالِ أفريقيا ، حيث قَضَيْتُ بضعةَ أعوامٍ أحصى أخبارَهَا وأتابعُ كل مايقعُ بأراضيهَا من أحداثٍ مهمَّةٍ قبل أن أتوجَّهَ صَوْبَ أرضِ الفراعنةِ عائدًا إلى بلادِكُمْ في زيارتى التاليةِ عامَ ٩٤٥ .

ولأن ماوصل إلى سمعى في شمالِ إفريقيا من أخبارِ مصرَ كان يُنْبِئُ عن حدوثِ تغيراتٍ هائلةٍ وتطوراتٍ عظيمةٍ، سعيتُ فَوْرَ وصولى إلى أرضِهَا في البحث عن نيلٍ لأتعَّرفَ منه على جميعِ مادار ومازال يدورُ في بلادِهِ من أحداثٍ ، وفي الفسطاطِ وبعد ثلاثةِ أسابيعَ كاملةٍ من البحثِ المتواصلِ علمتُ بوجودِهِ في صحراء الجيزةِ ، فأسرعتُ أعبرُ صفحةَ النهرِ متوجِّهًا إلى حيثُ يوجدُ، فإذابه قد أقام لنَفْسِهِ كوخًا صغيرًا من سيقانِ الغابِ في رحابِ أهراماتِ الأسرةِ الرابعةِ ، وإذا بكُوخِهِ الصغيرِ قد امتلأ عن آخرِهِ بالزائرين الذين جلسوا من حَوْلِهِ ينصتون إلى حديثِهِ عن ماضى



مسجد أحمد بن طولون

الفـراعنةِ وصـروحِ حـضـارَتِهِمُ التى شيَّدُوهَا بالعملِ الجادِّ المضنى عبرَ مئاتِ الأعوامِ جيلاً من بعدِ جيلٍ .

وإلى جانبِ الكوخِ انتظرتُ إلى أن انتـهى نيلُ من حـديثِه ، حـتى إذا ماتفـرَّقَ كلُّ مَنْ كـان بصُحْبَتِه توجَّهَ إليَّ مرحبًا، بينما أسرعتُ أسألُه قائلاً : لماذا هـجـرتَ منزلَكَ في الفـسطاطِ يانيلُ ؟ وماذا تُرَاكَ تفعلُ هنا ؟!

فـقـال : مَرَّ على عـهـود فـراعنَتِنَا العظامِ عشراتُ القرونِ وتبدَّلَتْ لغتُنَا مع اتخـاذِ أكـثرِنَا الإسـلامَ منهـجًا وعقيدةَ من القبطيةِ المتطورةِ كما تعلمُ عن الهيروغليفيةِ إلى العربيةِ، ففصلت حـواجـزُ الزمـانِ واللغـةِ بين أجيـالِنَا الجديدةِ وماضى أجدادِهِمُ الذين خلفوا وراءَهُمْ من معابدَ ومسلاتٍ وأهراماتٍ شامخةٍ مايشهدُ لهم بالرقيِّ والتطورِ ومن علومٍ وفنونٍ وآدابٍ ما ألف النواةَ الأساسيةَ لكلِّ ما نتمتَّعُ به ويتمتَّعُ به العالمُ بأسرِه من تقدمٍ حضاريٍّ ، حتى أن المصريين اليومَ راحوا ينظرون إلى آثَارِ اجـدادِهِمُ المنتـشـرةِ في شـتى أرجاءِ أراضيهم نظرةَ تعجبٍ ودهشةٍ ، بل إنـهم راحـوا ينسـجـون حـولَهَا الخرافـاتِ والحكايا ناسبين وجودَهَا إلى قُوًى سحريةٍ مجهولة، وهذا هو ما جعلنى أتركُ الفسطاطَ وأقيمُ هنا منذ بضـعةِ أشهرٍ ألقِّنُ الزائرين وكلَّ مَنْ يمرُّ بأهراماتِ الأسرةِ الرابعةِ من وقتٍ إلى آخَرَ حقيقةَ هذه الآثارِ الشاهقةِ التى تحـملُ في داخلِهَا ذكرى العملِ والاجتـهـادِ والعناءِ المتـواصلِ بقـدرِ ماتحملُ في مظهرِهَا علاماتِ الثراءِ والتطورِ ، وسـأنتـقلُ عن قـريبٍ إلى صـحـراءِ جنوبِ الوادى لأقصَّ على المصريين هناك حقيـقـةَ مـاتزخرُ به أرضُهُمْ من مسلاَّتٍ ومعابدَ .

فقلتُ له : حسنًا يانيلُ ، لتقصَّ على أهلِ بلادِكَ ماضىَ حضارَتِهِمْ كيفما تشاءُ ولتنتقلْ من أهراماتِ الجيزةِ إلى مـعـابدِ جنوبى الوادى متى تشـاءُ ، ولكن ليس قـبل أن تقصَّ عليَّ جـمـيعَ ماجرى في مصرَ من أحداثٍ منذُ أن

قضت الجيوشُ العباسيةُ على ثورةِ ابْنِ الخليجِ وحتى اليومِ.

فـأخـذنى نيلٌ إلى حـيثُ جلسنا في ساحةِ أبى الهولِ الذى غَطَّتْ حـبَّاتُ الرمـالِ جُزْأَهَ الأسـفلَ ، ثم راح يحـدثنى قـائلاً : بفشلِ ثورةِ ابن الخليجِ سيطر العباسيون على بلادِنَا سيطرةً مباشرةً امتدَّتْ نحو ثلاثين عامًا زال عنا خـلالَهَا ما تمتعنا به من استقلالٍ في عهدِنَا الطولونيِّ، وفي تلك الفترةِ القصيرةِ التى أدار فيـها صقرُ المصريين شئونَنَا ، ولأن العباسيين كانوا قد استوعبوا الدرسَ جيدًا وأدركوا مدى اتساعِ قدراتِ بلادِنَا ومدى ماتوفُّرُه لحكَّامِهَا من إمكانياتٍ وثرواتٍ تدفَعُهم دفعًا إلى الاستـقلالِ بحكمِهَا، عملوا بعد أن أعادوا سيطرتَهم عليها على كثرةِ تغييرِ الولاةِ وعدمِ إتاحةِ فرصةِ التفكيرِ في الاستقلالِ لأىٍّ منهم، فلم يَكَدْ يستقرُّ أحدُهُمْ في ولايَتِه حتى يأتىَ البريدُ من بغدادَ حاملاً نبأَ عَزْلِهِ واستبدَالِهِ بآخَرَ، ليس هذا فحسبُ بل إن العباسيين حرصوا كذلك على اقتطاعِ جزءٍ كبيرٍ من سلطاتِ والى البلادِ ومنحِهَا لعاملِ الخراجِ الذى يقومون هم بتعيينهِ ويملكون وحدَهم حقَّ محاسبَتِهِ أو عَزْلِهِ ، وبين تصاعدِ الاضطراباتِ وضعفِ الولاةِ وتسلطِ عُمَّالِ الخراجِ فقدَتْ


صفحة من أحد الكتب العربيه

شرايينُ الحياةِ المصريةِ دماءَ الرقيِّ التى ضخـتـها الدولةُ الطولونيـةُ بما وفرته لنا من استقرارٍ وثراءٍ .

فقلتُ له : وكلُّ هذا يانيلُ ؟! لتقصَّ علىَّ جميعَ ماجرى منذُ البدايةِ وبشىءٍ من التفصيلِ .

فـقـال : ازدادت الاضطراباتُ في مصرَ اشتعالاً بفشلِ ابن الخليجِ ولاسيما أن حروبَه مع الجيوشِ العباسيةِ أضافت إلى سوءِ حالةِ البلادِ منذُ سقوطِ دولةِ بنى طولونَ المزيدَ من الفوضى وعدمِ الاستقرارِ، كما أنه في ولايةِ عيسى النوشرى توجَّهَ عُبَيْدُ الله المهدىُّ إلى تُونُسَ حيثُ أسَّسَ قواعدَ الدولةِ الفاطميةِ (١) .

فقاطعتُه قائلاً : لقد أمضيتُ قبلَ قدومى إليكم بضعةَ أعوامٍ في الشمالِ الأفريقىِّ أشاهدُ ماصار يدورُ هناك محاولاً العودةَ بذاكرتى إلى الوراءِ لإدراكِ كيف تطورت أحداثُ العالمِ العربي طوراً من بعد آخَرَ ، فبعدَ سقوطِ دولةِ بنى أميةَ استولى العباسيون على السلطةِ دون العلويين وشعيتهمُ الذين ظلُّوا منذُ ذلك الحينِ يسعَوْنَ إلى الوصولِ إليها بالثورةِ والعملِ العلنى أولاً وبالدعوةِ السريةِ والعملِ في الخفاءِ بعدما أضعف بطشُ الحكامِ العباسيين من قواتِهِمْ وقدراتِهِمْ على المواجهةِ، ووسط اضطرابٍ وتفكُّكِ دولةِ بنى العباسِ وتلاعبِ القادةِ الأتراكِ بشئونِهَا اتجهت دعوةُ عبيدِ اللهِ المهدىِّ حفيدِ الحسينِ ابْنِ علىٍّ بْنِ أبي طالبٍ صوبَ شمالِ إفريقيا، وكان نجاحُ أبى عبدِاللهِ الشيعى أحدِ كبارِ دُعَاتِهِ في تونسَ سبباً لانتقالِهِ إليها وإعلانِهِ قيامَ دولَتِهِ على أرْضِهَا .

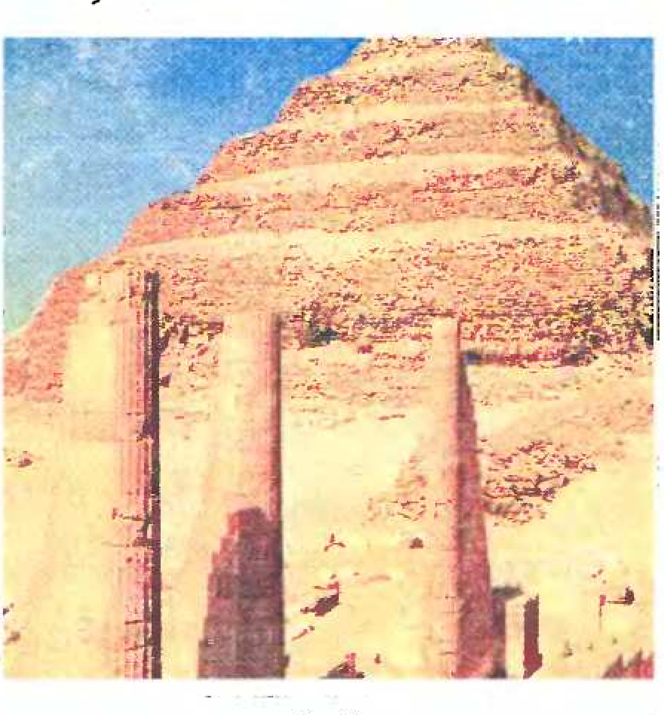
فقال : حقّاً يا أبتى ، فبرغمِ الجهودِ التى بذلتها الدولةُ العباسيةُ للقبضِ عليه استطاع عبيدُالله المهدىُّ أن يخرجَ من سوريا محلَّ إقامَتِهِ إلى مصرَ ومنها

(١) «تنسب الدولة الفاطمية إلى السيده فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأم الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب .

إلى تونسَ حيثُ نجح وشيعتُه في القضاءِ على دولةِ الأغالبةِ معلنًا قيامَ الدولةِ الفاطميةِ في القيروانِ عام ٩٠٩ ليبزغَ في سماءِ العالمِ العربيِّ نجمُ دولةٍ جديدةٍ فتيةٍ تسعى إلى التوسيعِ شرقًا على حسابِ الدولةِ العباسيةِ المتداعيةِ، وكانت بلادُنَا بما تتميَّزُ به من ثراءٍ وموقعٍ جغرافيٍّ فريدٍ مفتاحَ هذا التوسعِ ، لذلك لم يمضِ على تأسيسِ الدولةِ الفاطميةِ وقتٌ طويلٌ حتى راحت جيوشُهَا تحاولُ الاستيلاءَ على مصرَ .

فقلتُ له : أجَلْ يانيلُ ، ولكن كيف وقع الصدامُ الأولُ بين بلادِكُمْ والدولةِ الفاطميةِ؟

فقال : في عام ٩٠٨ تُوُفِّيَ المكتفِي وبوفَاته فشلت محاولةُ حكامِ بني العباسِ استعادةَ سلطانِهِمْ من أيدى القادةِ الأتراك، هذه المحاولةُ التى بدأها الموفَّقُ طلحةُ في عهدِ المعتمدِ، وتابعها من بَعْدِهِ كلاًّ من المعتضدِ والمكتفِي ، إذ راح الأتراكُ يحرصون منذ ذلك الحينِ على اتخاذِ تدابيرَ صارمةٍ تمكِّنُهُمْ من تأكيدِ نفوذِهِمْ واستمرارِ سيطرَتِهِمْ على ماتبقَّى للعرشِ العباسيِّ من قوةٍ وسلطانٍ، مما جعلهم يقفون في وَجْهِ محاولةِ توليةِ الأقوياءِ من بنى العباسِ من أمثالِ المعتضدِ والمكتفي، وأسرعوا بتوليةِ أبى الفضلِ جعفرِ بْنِ المعتضدِ ولقَّبُوهُ بالمقتدرِ، وهو لم يتجاوزْ بعدُ الثالثةَ عشرةَ من عمرِهِ ليضمنوا السيطرةَ عليه وفرضَ إرادتِهِمْ على شئونِ دولَتِهِ،



هرم سقاره المدرج

وفي العامِ التالى توفى عيسى النوشرى وأدار ابنُه أبو الفتح محمدٌ شئونَ البلادِ بضعةَ أشهرٍ إلى أن قدم الوالى الجديدُ أبو المنصور تكّين، فكان عليه أن يبدأ من فَوْرِه في الإعدادِ لمواجهةِ الخطرِ الفاطميِّ الذى بات يهدِّدُ حدودَ البلاد الغربيةِ، وبعد أن أعدَّ تكينُ عُدَّتَهُ أرسل إلى حاكم بَرْقَةَ جيشًا ليستعينَ به على إبعادِ خطرِ الفاطميين ، وفي برقةَ كانت هزيمةُ الجيشِ المصريِّ واستيلاءُ أعوانِ عُبَيْدِ اللهِ المهدى على ذلك الإقليمِ المصريِّ عاملاً حَفَزَ المهديَّ على استكمالِ غَزْوِ أرضِ مصرَ، إذ أرسل إليها جيشًا عظيمَ العددِ والعُدَّةِ بقيادةِ ابْنِهِ أبى القاسمِ عامَ ٩١٣، وسار الجيشُ الفاطميُّ إلى الإسكندريةِ وتمكَّنَ من السيطرةِ عليها قبل أن يَتَّجِهَ جنوبًا ويضعَ يَدَهُ على جزءٍ كبيرٍ من أراضى مصرَ الغربيةِ ، وأمامَ هذا الخطرِ الداهمِ لم يَجِدِ المقتدرُ بُدّاً من إرسالِ النجدةِ إلى مصرَ برئاسةِ مؤنسٍ الخادمِ أحدِ كبارِ القادةِ العباسيين ، وبعد سلسلةٍ من المعارك أفلح مؤنسٌ الخادمُ وجنودُهُ في صدِّ الفاطميين وإرغامِهِمْ على الجلاءِ عن مصرَ .

فقلتُ له : ولكنَّ الفاطميين لم يستسلموا لهزيمَتِهِمْ وأعادوا محاولةَ غَزْوِ بلادِكُمْ أكثرَ من مرةٍ، أليس كذلك؟

فقال : بَلَى ياأبتى ، فقد أعاد عُبَيْدُ اللهِ المهدىُّ الكَرَّةَ في العامِ التالى، وقدمت جيوشُه بواسطةِ الأساطيلِ عن طريقِ البحرِ المتوسطِ، وتمكَّنَتْ من اقتحامِ الإسكندريةِ ، ومن جديدٍ أسرعت الجيوشُ العباسيةُ إلى مصرَ بقيادةِ مؤنسٍ الخادمِ لنجدةِ تَكّينَ وجنوده، وللمرةِ الثانيةِ ألحقت الجيوشُ المصريةُ والعباسيةُ الهزيمةَ بجيوشِ الفاطميين، وفي غمرةِ النصرِ قام مؤنسٌ الخادمُ بعزلِ أبى المنصورِ تَكّينَ من ولايتِه خوفًا من أن يُسْكِرَهُ النصرُ فيفكِّرَ في الاستقلالِ بحكمِ البلادِ، وبعد خروجِ تَكّينَ ظلَّ مؤنسٌ الخادمُ في

مصرَ يديرُ شئونَهَا إلى أن أرْسَلَ إليها المقتدرُ واليًا جديدًا هو ذُكَا الرومىُّ الذى تصدَّتِ البلادُ في عَهْدِهِ عامَ ٩١٩ لثالثِ المحاولاتِ الفاطميةِ ، إذ أرسل المهدىُّ في ذلك العامِ إلى بلادنَا جيشًا كثيفًا وأسطولاً قوياً، وهبَّ ذُكَا الرومىُّ يُعِدُّ العدةَ للمقاومةِ غيرَ أن الوفاةَ لحقَتْ به ليضطرَّ المقتدرُ إلى إعادةِ أبى المنصورِ تَكِّينَ إلى الولايةِ لسابقِ خِبْرتِهِ في مواجهةِ الفاطميين، إلى جانبِ إرسالِهِ لفرقِ الجندِ وسفنِ الأسطولِ العباسى لمؤازَرَتِهِ فى صدٍّ العدوانِ الجديدِ .

فقلتُ له : وقد تمكنت القواتُ المصريةُ العباسيةُ من تحقيقِ الانتصارِ للمرةِ الثالثةِ .



فقال : أَجَلْ ، ولكنَّ الأمرَ لم يكنْ يسيرًا هذه المرةَ، فقد كانت القواتُ الفاطميةُ من الضخامةِ إلى حدٍّ اضطرَّ معه المقتدرُ إلى إرسالِ الإمداداتِ إلى مصرَ مَدَدًا من بعد آخَرَ على مدارِ مايقربُ من عامٍ كاملٍ دار خلالَه الكثيرُ والكثيرُ من المعاركِ والاشتباكاتِ قبلَ أن تلحقَ بالفاطميين الهزيمةُ التى كان لمؤنسٍ الخادمِ دورٌ كبيرٌ في إلحاقِهَا بهم ، ولكنَّ الأمرَ الذى لابدَّ أن تعلَمَه هو أن بلادَنَا صارت وَسْطَ كلِّ هذه الأحداثِ المضطربةِ مسرحًا تدورُ في جنبَاتِهِ المعاركُ والحروبُ المتتابعةُ وأرضًا تمتلىءُ بالجيوشِ العباسيةِ التى لم يكفَّ جنودُهَا يومًا عن مضايقةِ أهالى البلادِ بما كانوا يقومون به من أعمالِ السلبِ والنهبِ علاوةً على إرهاقِ مصرَ بما كان يجبُ عليها أن توفرَهُ لهم من نفقاتٍ طائلةٍ.

فصمتُّ أفكِّرُ قليلاً، ثم رحتُ أتوجَّهُ إليه قائلاً : حقّاً

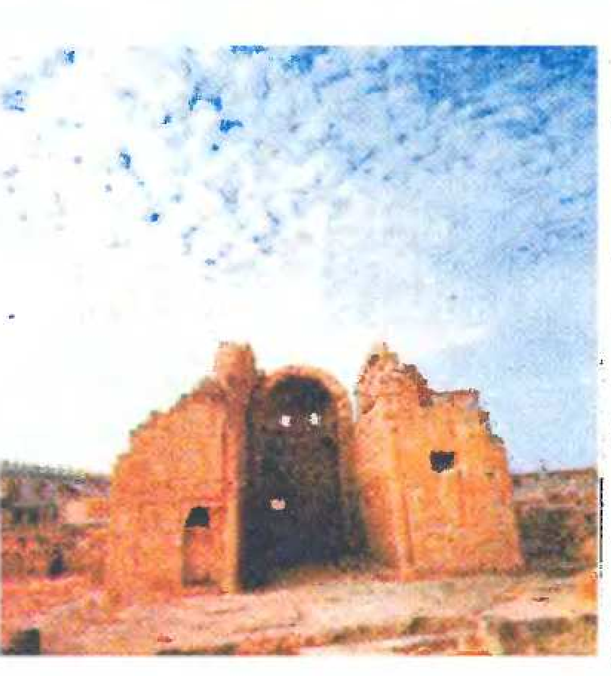
يانيلُ ، ولكن ما الذى جرى بعد ذلك ؟

فقال : استمر تَكِّينُ يديرُ شئونَ مصرَ في ولايَتِهِ الثانيةِ إلى أن قامَ مؤنسُ الخادمُ بعَزْلِهِ عامَ ٩٢١ إلا أن عزلَه هذه المرةَ أدَّى إلى ثورةِ بعضِ الجندِ والأهالى المؤيدين له مما اضطرَّ مؤنسًا إلى إعادَتِهِ بعد ثلاثةِ أيامٍ من عَزْلِهِ إجابةً لرغبةِ الثائرين، ولكنه ما إن تمكَّنَ من تهدئَةِ هذه الثورةِ حتى عاد يعزِلُهُ من جديدٍ ويأمرُهُ بالخروجِ إلى سوريا، فلم تَزِدْ ولايَتُهُ الثالثةُ على أربعةِ أيامٍ، ولم يَكُنِ ابْنُ بَدْرٍ الوالى الجديد يُتْقِنُ من فنونِ الحكمِ والإدارةِ الكثيرَ فازدادَتْ في عهدِهِ الاضطراباتُ في شتى أرجاءِ البلادِ، وثار عليه فريقٌ كبيرٌ من الجندِ حتى أن المقتدرَ لم يَجِدْ في نهايةِ الأمرِ بُدًّا من عَزْلِهِ وإرسالِ والٍ آخر هو أحمدُ بْنُ كيغَلَغْ ، غيرَ أن الجندَ تمادَوْا في ثورَتِهِم بعد أن انتشرَتِ الفوضى بين صفوفِهِمْ مما جعل المقتدرَ يأمرُ بعزلِ ابْنِ كيغَلَغْ وتسليمِ ولايةِ مصرَ لأبى المنصورِ تَكِّينَ للمرةِ الرابعةِ عامَ ٩٢٤، وعلى الرغمِ من قوةِ تَكِّينَ ومهارَتِهِ الواضحةِ في تسييرِ شئونِ البلادِ لم يَكُنْ يسيرًا عليه إعادةُ الأمنِ والطمأنينةِ إلى رُبُوعِهَا .

فقلتُ له : وما الذى جعل إعادةَ الأمنِ والطمأنينةِ إلى بلادِكُمْ أمرًا عسيرًا إلى هذه الدرجة يانيلُ ؟

فقال : لقد تفشَّتِ الفوضى بين صفوفِ الجندِ وعَمَّ فسادُهُمْ في البلادِ ووصل خطرُ عصيَانِهِمْ وثَوْرَتِهِمْ على الولاةِ إلى حدٍّ هُدِّدَتْ معه مصرُ كلُّهَا بالتمزقِ ، لذلك كان على تَكِّينَ أن يتصدَّى منذ أولِ أيامِ ولايَتِهِ الرابعةِ إلى اضطرابِ الجندِ وخروجِهِمْ على النظامِ والطاعةِ، ولما توفى المقتدرُ عامَ ٩٣٢ وبُويِعَ أخوه القاهرُ من بعدِهِ بالحكمِ أرسل الحاكمُ العباسىُّ الجديدُ إلى الفسطاطِ يقرُّ تَكِّين على ولايَتِهِ ويمدحُ جهودَهُ التى كانت قد أعادت لها الكثيرَ من أمنِهَا واستقرارِهَا ، ولكنَّ ولايةَ تكينَ على مصرَ لم تستمرَّ بعد ذلك طويلاً ، إذ توفى في العام

التالي لتضييع بوفاته كلُّ الجهودِ التي بذلَهَا من أجلِ إعادةِ السيطرةِ على البلادِ حيث استولى ابْنُهُ محمدٌ على مقاليدِ الولايةِ، بينما وقف محمدُ بْنُ عليٍّ الماذرائي عاملُ الخراجِ في وَجْهِ ذلك الاستيلاءِ، وتمكَّنَ من دَفْعِه إلى الفرارِ من مصرَ، وبرغمِ أن البريدَ قد جاء إلى الفسطاط يحملُ أمرًا من القاهر بأن يَلِيَ محمدُ بْنُ تَكِّين شئونَ الولايةِ وأن يبقى الماذرائي قائمًا على الخراجِ، رفض ابْنُ عليٍّ الماذرائي الخضوعَ لأمرِه ومنع ابْنَ تَكِّينَ من دخولِ البلادِ، ووسطَ كلِّ هذه الفوضى ظهر محمدُ بْنُ طُغجٍ الإخشيدُ بوضوحٍ على مسرحِ الحياةِ المصريةِ لأولِ مرةٍ.



جامع القروين كان ملجأ لهروب الفاطميين من مصر إلى قيروان

فقلتُ له : ومَنْ يكونُ محمدُ بْنُ طُغجٍ الإخشيدُ هذا يانيلُ؟

فقال : هو محمدُ بْنُ طُغجِ بْنُ جفٍّ ، أما لقبُ الإخشيدِ فلقبٌ منحه له حكَّامُ بني العباسِ، كان جَدُّهُ جفٌّ واحدًا من الفرسانِ الأقوياءِ الذين استقدَمَهُمُ المعتصمُ وألحقَهُمْ بخدمةِ دولَتِه في الماضي ليستغنِيَ بهم عن الفرسِ ويتخلَّصَ بواسطَتِهِمْ من طموحِهِمُ الزائدِ إلى النفوذِ والسيطرةِ، أما طُغجُ بْنُ جفٍّ...

فقاطعتُه قائلاً : أليس طُغجُ بْنُ جفٍّ هذا هو والي سوريا الذي خرج على خلفاءِ خُمَارَوَيْه واستقلَّ دونهم بحكمِ ماتحتَ يَدَيْهِ من أراضٍ؟

فقال : بَلَى ياأبتي ، فقد التحق طُغجُ

بْنُ جفٍّ بعد وفاةِ أبيهِ بخدمةِ الأسرةِ الطولونيةِ، وكان منه بعد وفاةِ خُمَارَوَيْه ما ذكرتُهُ لي الآنَ، أما محمدُ بْنُ طُغْجٍ فقد وُلِدَ في بغدادَ عامَ ٨٨٢ وشبَّ في سورياخلالَ ولايةِ أبيه عليها، وبعد سقوطِ الدولةِ الطولونيةِ أخذ يشقُّ طريقَه كأحدِ الجنودِ والقادةِ المغامرين الذين امتلأتْ بهم أرجاءُ الدولةِ العباسيةِ في ذلك العصر، فعمل على خدمةِ أبى المنصورِ تكينَ أثناء عَمَلِه في مصرَ، واشتركَ مع الجيوشِ العباسيةِ في مواجهةِ الغزواتِ الفاطميةِ، وتقلَّدَ بعضَ المناصبِ الإداريةِ كان منها ولايتُه على

رِ وا لا ب ا عِ

كعادةِ القادةِ العباسيين حينئذٍ، ويتمكَّنَ من الحصولِ على موافقةِ الحاكمِ العباسيِّ على ولايَتِهِ لسوريا عامَ ٩٣١ ، ولاشكَّ أنه كان يطمحُ إلى ولايةِ مصرَ منذ وقتٍ طويلٍ ، غيرَ أن جلوسَ تكينَ على كرسيِّ ولايَتِهَا لم يُتِحْ له السبيلَ إلى ذلك ، حتى إذا ماتوفى تكينُ أسرع يحصلُ من القاهرِ على تقليدِبولايَتِهَا.

فقلتُ له : وهل استطاع الإخشيدُ أن يبسُطَ سلطانَهُ على مصرَ ؟

فقال : لقد حصل الإخشيدُ من حاكمِ الدولةِ العباسيةِ على تقليدٍ بولايةِ مصرَ، غيرَ أن ذلك التقليدَ وحدَه لم يكنْ كافيًا وسط تصارعِ القادةِ الأتراكِ وغيرِهِمْ على طريقِ الفوزِ بالمناصبِ والسلطانِ، ومع ماقصصتُه عليك من اضطراباتِ مصرَ الداخليةِ بالإضافةِ إلى اضطرابِ الأحوالِ في بغدادَ عاصمةِ الدولةِ العباسيةِ لم يتمكَّنِ

ـدُ من بسطِ سيطرَتِهِ على بلادِنَا، ولم يُدْعَ له على منابرِ مساجدِهَا إلا نحوَ اثنين وثلاثين يومًا، سرعان ماجاء بعدَها البريدُ يحملُ قرارَ القاهرِ بعزلِهِ وتوليةِ أحمدَ بْنِ كيغلغ بدلاً منه ، وبينما عاد الإخشيدُ إلى سوريا دون أن يتمكنَ من تحقيقِ



حلمِهِ في ولايةِ مصرَ دخل ابنُ كيغلغ في صراعٍ عنيفٍ مع محمدِ بْنِ تكينَ الذى عاد إلى البلادِ مرةً أخرى بعد أن توفى القاهرُ وجلس الراضى أبو العباس أحمدُ بْنُ المقتدرِ على العرشِ العباسيِّ خلفًا له عامَ ٩٣٤ ، عاد وبين يديه تقليدٌ بالولايةِ من الحاكمِ الجديدِ، وهنا انقسمَ الجندُ إلى طائفتين، إحداهما تناصرُ ابن تكينَ والأخرى تقفُ إلى جانبِ ابن كيغلغ الذى تمكَّنَ بعدَ عدةِ اشتباكاتٍ داميةٍ بمساعدةِ ابن على الماذرائى عاملِ الخراجِ من أن يقتربَ من إحرازِ النصرِ الحاسمِ على خَصْمِهِ ، غير أنه ماكاد يقتربُ من تحقيقِ ذلك النصرِ حتى استطاع الإخشيدُ أن يحصلَ من الراضى على تقليدٍ جديدٍ بولايةِ مصرَ .

فقلت له : وهل تمكن الإخشيدُ من بسطِ سيطرتِهِ على بلادِكُمْ هذه المرةَ؟

فقال : أراد الاخشيدُ في أولِ الأمرِ أن يجنِّبَ نفسَه وجيشَه أخطارَ مواجهةٍ حربيةٍ مع أحمد بن كيغلغ ، فأرسل إلى ابن على الماذرائى صاحب القوةِ الحقيقيةِ في ولاية ابن كيغلغ يستميلُه إليه ويمنِّيه بالنفوذِ والثراءِ ،

إلا أن الماذرائى رفض أن يمدَّ له يدَ المعاونةِ مما اضطره إلى استخدامِ القوةِ مرسلاً أسطولهَ إلى شواطىءِ مصر على البحرِ المتوسطِ قبل أن ينطلقَ على رأسِ جنودِهِ صوبَ شرقى الدلتا حيث التقى بجيشِ ابن كيغلغ وتمكَّنَ من الانتصارِ عليه ، فما كان من ابن كيغلغ الذى ملَّ تحكُّمَ الماذرائى في شئونِ الحكمِ والإدارةِ ، إلا أن ألقى سلاحَ المقاومةِ وسلَّمَ البلادَ إلى الإخشيدِ وجنودِه الذين وضعوا أيديَهُمْ على الفسطاطِ عامَ ٩٣٥، وأمامَ تسليمِ ابن كيغلغ ثار بعضُ قوادِ جيشِهِ وجنودِهِ وفروا هاربين إلى برقةَ، وهناك اتصلوا بأبى القاسمِ الفاطمى يحفزونه على معاودةِ غزوِ مصرَ ويصفون له مدى ماصارت تعانيه من وهنٍ واضطرابٍ، وبالفعلِ لم يمضِ وقتٌ طويلٌ قبل أن يصلَ الجيشُ الفاطميُّ إلى الإسكندريةِ عامَ ٩٣٦، وفي إحدى قرى البحيرةِ التقى الجنودُ الفاطميون بجنودِ محمدِ ابْنِ طغجٍ الإخشيدِ الذى قدر له أن يظفرَ بالانتصارِ ليتفرَّغَ بعد ذلك لاتخاذِ التدابيرِ التى تتيحُ له القبضَ التامَّ على جميعِ شئونِ البلادِ الداخليةِ .

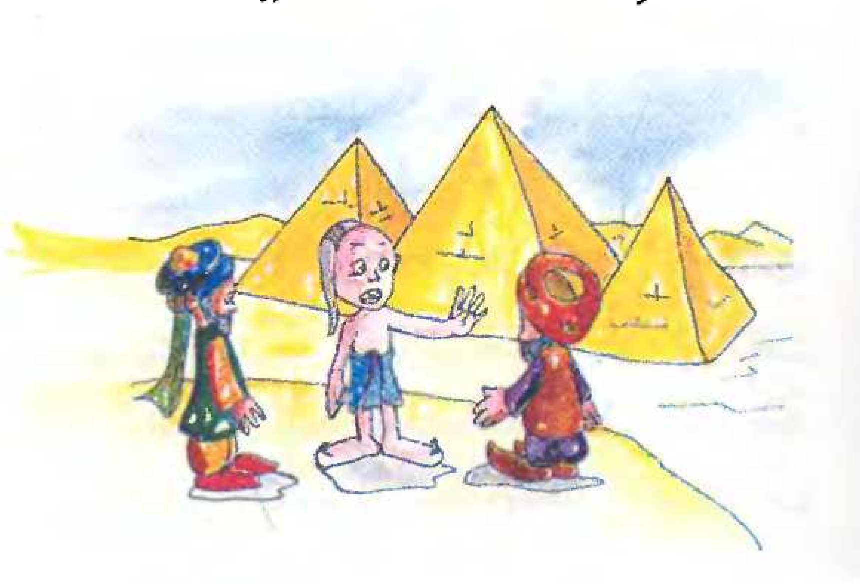
فقلت له : وماذا كان موقفُ الدولةِ العباسيةِ مما يدورُ في بلادِكُمْ حينئذٍ يانيلُ؟

فقال : كانت دولةُ بنى العباسِ حينئذٍ قد بلغت أقصى درجاتِ ضعفِها وتفكُّكِهَا ، حتى أن الراضى لم يجدْ في نفسِهِ القدرةَ على إدارةِ شيءٍ من شئونِ الدولةِ المشرفةِ على الضياعِ مما جعله يلجأُ إلى ابن رائق والى البصرةِ ويسلِّمُه مقاليدَ الأمورِ ملقبًا إياه بلقبِ أميرِ الأمراءِ، وهكذا وفي الوقتِ الذى لم يكنْ قد تبقَّى فيه تحتَ السيطرةِ المباشرةِ الفعليةِ لحاكمِ الدولةِ العباسيةِ سوى بغدادَ وماحولَها جاء ابنُ رائقٍ ليضعَ يدَه على القليلِ الذى تبقَّى ، وفى مثلِ هذه الحالةِ لم يكنْ في وسعِ العباسيين تجاه مصر وماصار يدورُ

فيها، إلا أن يراقبوا الأمرَ من بعد انتظارٍ لما تسفرُ عنه الأحداثُ التى ما أن أنبأتْ عن سيطرةِ الإخشيدِ على شئونِ البلادِ سيطرةً كاملةً حتى قدم إليها الفضلُ بْنُ جعفرِ بْنِ الفُرَاتِ أحدُ وزرائهِمْ وأقام في ضيافةِ الإخشيدِ بالفسطاطِ بعضَ الوقتِ قبل أن يرحلَ عائدًا إلى بغدادَ وقد أقرَّ الأخشيدُ على ولايَتِهِ لمصرَ ، بل وساعده أيضًا على التخلصِ من ابن علي المادرائى عاملِ خراجِهَا ومصادرةِ أموالِهِ وأموالِ عائلتِهِ الطائلةِ .

فقلت له : لقد قبض الإخشيدُ إذن على خراجِ مصرَ إلى جانبِ سيطرَتِهِ على كرسى ولايتِهَا .

فقال : أجل ياأبتى ، وباستيلائه على الخراجِ صار محمدُ بْنُ طغجٍ الإخشيدُ حاكمًا فعلياً لدولةٍ شاسعةٍ تضمُّ مصرَ وفلسطينَ ولبنانَ وسوريا وتصلُ حدودُها في الشمالِ الغربى إلى حدودِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ لا ينازِعُهُ في حكمِهَا منازعٌ بالرغمِ من استمرارِ وَلائِهِ الشكلىِّ لحاكمِ الدولةِ العباسيةِ تساعدُه في المحافظةِ على سلامةِ دولَتِهِ قوةُ جيوشِهِ التى برع في تنظيمِهَا وحسن تدريبِهَا مع تعددِ أجناسِ فِرَقِهَا وصعوبةِ التوفيقِ بينها ، وبعد أن اطمئنَّ الإخشيدُ تمامًا إلى قوةِ مَوْقفِهِ واتساعِ رفعةِ دولَتِهِ راح يستلهِمُ خطى أحمدَ بْنِ طولونَ ويتشبَّهُ به في تصريفِ شئونِهِ الداخليةِ إلى جانبِ اهتمامِهِ البالغِ بمواصلةِ العملِ على أن تكونَ جيوشُه على أُهْبَةِ



الاستعدادِ للتصدِّى لأىِّ خطرٍ يهدِّدُ أمنَها وسلامتَها .

فقلت له : أتقصدُ خطرَ أن يستشعرَ الحاكمُ العباسىُّ ماصار يتمتعُ به من استقلالٍ في حكمِ مصرَ وسوريا فيُقْدِمَ على عَزْلِه ومواجهتِه بالقوةِ إن هو حاول رفضَ تنفيذِ ذلك العزلِ .

فقال : لا بالطبعِ ، لا يمكنُ للخطرِ أن يأتىَ من جانبِ حكامِ بنى العباسِ الذين لم يعدْ لهم من الأمرِ شئٌ كما سبق وأن قلتُ لك ، لكنه كان لابدَّ له أن يأتىَ من جانبِ قادةِ الدولةِ العباسيةِ الذين حولوا بغدادَ إلى مسرحٍ كبيرٍ يمتلىءُ بالدسائسِ والمؤامراتِ من أجل الاستئثارِ بالنفوذِ والسلطانِ الذى يمنحُه لهم منصبُ أميرِ الأمراءِ ، فقد قامت المنافسةُ بين ابن رائقٍ وبجكمِ التركى حولَ ذلك المنصبِ، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى تمكَّنَ بُجْكُمُ من الفوزِ على ابْنِ رائقٍ وإبعادِه عن بغدادَ عامَ ٩٣٨ ، وأمامَ ذلك الإبعادِ اضطرَّ ابْنُ رائقٍ إلى قبولِ ولايةِ بعضِ المناطقِ الحدوديةِ في شمالِ غربى الدولةِ العباسيةِ، ولكنه مع الوقتِ لم يكتفِ بهذه المناطقِ وراح يطمعُ إلى التوغلِ في أراضى الدولةِ الإخشيديةِ، إذ خرج على رأسِ جنودِهِ في العامِ التالى واستولى على لبنانَ وسوريا ، وعندئذٍ تصدَّى له الإخشيدُ بجيوشِهِ غير أنه مادار بينهما من معاركَ لم يسفرْ عن نتيجةٍ حاسمةٍ، وفي عامِ ٩٤٠ عقد الإخشيدُ مع ابن رائقٍ صلحًا يقضى بأن ينزلَ له عن لبنانَ وسوريا وجزءٍ كبيرٍ من الأراضى الفلسطينيةِ وأن يسدِّدَ له أيضًا مبلغًا ماليا كبيرًا .

فقلتُ له : وكيف رَضِيَ الإخشيدُ بذلك الصلحِ مع كلِّ مافيه من تراجعٍ ومهانةٍ ؟

فقال : لقد كان الإخشيدُ في تعاملِه مع ابن رائقٍ حذرًا أشدَّ مايكون الحذرُ وبعيدَ النظرِ بالقدرِ الذى يليقُ بقائدٍ ذى مهارةٍ وفطنةٍ. إذ لم يكنْ ابن

رائقٍ هو العدوَّ الوحيدَ الذى يجبُ عليه أن يتـصـدَّى له إلى نهـايةِ المطافِ ، حتى وإن كلَّفه ذلك الكثيرَ من قوتِه وقدرتِه على المواجهةِ فهناك الكثيرون الذين ينظرون إلى صـراعِهِمَا نظرةَ المترقبِ لضعفِ قوتَيْهِمَا استعدادًا للانقضاضِ عليهما معًا، فبعد عودةِ ابن طغج الإخشيدِ إلى الفسطاطِ عقب عقدِهِ للصلحِ مع ابن رائقٍ جاءت الأخبارُ تحملُ نبأَ وفاةِ الراضى وولايةِ أخيه المتَّقى الذى استدعى ابْنَ رائقٍ بعد وفاةِ بُجْكُمَ التركى إلى بغدادَ وأعاد له منصبَ أميرِ الأمراءِ ، ولكن ابْنَ رائقٍ لم يكدْ يستقرُّ في العاصمة العباسية حتى تمكَّنَ ناصرُ الدولةِ أميرُ الحمدانيين من قَتْلِهِ والاستيلاءِ على منصبِهِ ، وهكذا استعادَ الإخشيدُ بقليلٍ من الدهاءِ والانتظارِ ماسبق وأن فقدَه من أراضٍ في يُسْرٍ ودون اللجوءِ إلى إهلاكِ قواتِهِ في ساحاتِ المعاركِ والحروبِ .

فقلت له : حسنًا يانيلُ ، ولكن مَنْ هم هؤلاءِ الحمدانيون ؟!



طبق من الخزف العباسى – القرن العاشر

فقال : الحمدانيون أسرةٌ عربيةٌ أمكنها في خضمِّ الفوضى التى اجتاحت جنباتِ الدولة العباسيةِ أن تقيمَ لنفسِهَا ملكًا في شبهِ الجزيرةِ العربيةِ متخذةً من مدينةِ الموصلِ في جنوبى العراقِ عاصمةً لها عامَ ٩٢٩ ، ولقربِ الحمدانيين من بغدادَ كان من الطبيعىِّ أن يتدخلَ أميرُهم ناصرُ الدولةِ الحمدانى في الصراعاتِ المشتعلةِ حولَ منصبِ أميرِ الأمراءِ ،

وقد ظلَّ ناصرُ الدولةِ بعد مقتلِ ابن رائقٍ أميرًا للأمراءِ العباسيين نحوَ ثلاثةَ عشرَ شهرًا قبل أن يضطرَّ أمامَ مقاومةِ القادةِ الأتراكِ له إلى تركِ ذلك المنصبِ والرحيلِ عن بغدادَ، وبعد ناصرِ الدولةِ اختار المتَّقي القائدَ التركي توزونَ أميرًا للأمراءِ ، غير أنه سرعان ماساءت العلاقةُ بينهما إلى حدٍّ رأى المتقى معه ضرورةَ الإرسالِ إلى الإخشيدِ والاستنجادِ به .

فقلت له : وهل استجاب الإخشيدُ لرسالةِ المتقى يانيلُ ؟

فقال : أجل ياأبتي ، فقد خرج الإخشيدُ في بعضِ جنودِهِ عامَ ٩٤٤ وتوجَّهَ إلى أرضِ العراقِ ، حيث التقى بالمتَّقِي على شاطئِ الفراتِ حاملاً معه الكثيرَ من المصنوعاتِ والمصوغاتِ المصريةِ الفاخرة، وهناك وبعد أن بالغ الإخشيدُ في إظهارِ ولائهِ للدولةِ العباسيةِ وحكامِها عرض على المتقى أن يعودَ معه إلى الفسطاطِ ليكونَ في حمايةِ جيوشِهِ ، ولكن المتقى رفض أن ينتقلَ بالعرشِ العباسيِّ إلى مصرَ وفضَّلَ على ذلك العودةَ إلى توزون بعد أن منح الإخشيدَ تقليدًا جديدًا بولايتِهِ وأبنائِهِ من بعدِهِ على مصرَ وسوريا لمدةِ ثلاثين عامًا كاملةً بالإضافةِ إلى ولايةِ أراضى الحجازِ واليمنِ .

فقلت له : لقد استفاد الإخشيدُ من هذه المقابلةِ استفادةً بالغةً .

فقال : لم يكن الإخشيدُ في حاجةٍ إلى تقليدٍ جديدٍ من حاكمٍ عباسى لا يملكُ من أمرِ نفسِهِ شيئًا لولايةِ أراضى مصرَ وفلسطينَ ولبنانَ وسوريا التى كان قد أخذ البيعةَ في حكمِهَا من بعدِهِ لأكبرِ أبنائِهِ أبى القاسمِ أنُوجُورَ قبلَ لقائِهِ بالمتقى بما يقربُ من عامين ، أما ولايتُه على اليمنِ والحجازِ فلم تتعدَّ كونَها ولايةً شكليةً لخضوعِ هذه المناطقِ خضوعًا فعلياً لحكمِ بعضِ الأسراتِ المحليةِ .

فقلت له : إذن لقد فشل الإخشيدُ

كما فشل ابْنُ طولونَ من قبله في نقلِ العرشِ العباسيِّ إلى بلادِ الفراعنةِ .

فقال : أجل يا أبتى ، ولكن علاقةَ الإخشيدِ مع الدولةِ العباسيةِ هذه العلاقةَ التى لم يطرأ عليها شيءٌ من التغييرِ بعد وفاةِ المتقى في العامِ الماضى وولايةِ المستكفى عبدالله بْنِ المكتفى ليست هى العاملَ المهمَّ في تحديدِ مستقبلِهِ ومستقبلِ دولتِهِ ، بل إن العاملَ المهمَّ في تحديدِ ذلك كان في صراعِهِ مع الحمدانيين ، إذ توفى ناصرُ الدولةِ وتَوَلَّى أخوه سيفُ الدولةِ الحمدانى الحكمَ من بعده، فحاول أن يستولىَ على أراضى لبنانَ وسوريا بعد عودةِ الإخشيدِ من مقابلةِ المتقى ، وأمامَ تهديدِ سيفِ الدولةِ لأراضى لبنانَ وسوريا خرج ابْنُ طغج على رأسِ جيوشِهِ من جديدٍ واصطدمَ مع جيوشِ الحمدانيين بالقربِ من مدينةِ حَلَبَ ،



إناء من الخزف – من القرن العاشر

ومع أن النصرَ كان بجانبِهِ جاءت الأخبارُ إلينا منذُ بضعةِ أيامٍ تحملُ نبأَ عقدِهِ لصلحٍ مع سيفِ الدولةِ يقضى بأن يكونَ للحمدانيين حكمُ الأراضى الواقعةِ شمالى دمشقَ بينما يحتفظُ هو بحكمِ الأراضى الواقعةِ جنوبَهَا .

فقلت له : ولكن ماذا عن الفاطميين يانيلُ؟

فقال : بعد أن حقَّقَ الإخشيدُ نصرَه الحاسمَ على جيوشِ الفاطميين التى حاولت غَزْوَ مصرَ بمساعدةِ جنودِ ابن كيغلغ ، أدرك الفاطميون مدى قوةِ حاكمِ البلادِ الجديدِ وفضَّلُوا التصالحَ معه محاولين جذبَهُ واستمالَتَهُ إليهم، غيرَ أنِ الإخشيدَ فضَّلَ البقاءَ في جانبِ العباسيين لما يتيحه ضعفُهم له من استقلالٍ بحكمِ الأراضى التى يسيطرُ عليها ، وبذلك ظلَّ السلامُ الحَذِرُ هو السمةَ السائدةَ في علاقتِنَا بالفاطميين الذين لم يكفُّوا يومًا عن بَثِّ شيعتِهِمْ بين صفوفِنَا للدعوةِ لهم واجتذابِ المزيدِ من الأنصارِ والأعوانِ من يومٍ إلى آخَرَ ، والحقيقةُ أن بلادَنَا قد استعادَتْ تحتَ حكمِ الإخشيدِ الكثيرَ من أَمْنِهَا واستقرارِهَا واطمئنانِ أهليها مبتعدةً عن القلاقلِ التى تجتاحُ أغلبَ الأقاليمِ العربيةِ في هذه الأوقاتِ العصيبةِ بعد أن استطاع ذلك الحاكمُ القوىُّ الماهرُ أن يقضىَ على الكثيرِ من صورِ الاضطراباتِ والفوضى التى سادت حياتَنَا منذ سقوطِ دولةِ بنى طولونَ.

فقلت له : مع أنكم قد استعدتُمْ تحتَ حكمِ الإخشيدِ الاستقلالَ الذى كان يميِّزُ عهدَكم الطولونىَّ ، لم أَلْمَحْ في حديثِكَ عنه شيئًا من ذلك التعاطفِ الذى كنتُ أَلمحُه دومًا في حديثِكَ عن أحمدَ بْنِ طولونَ.

فقال : على الرغمِ من كلِّ ماحقَّقَهُ الإخشيدُ لبلادِنَا وكلِّ مايتمتَّعُ به من قدرةٍ ومهارةٍ ودهاءٍ ، فإنه لم يصلْ يومًا إلى براعةِ ابن طولونَ في الحكمِ والإدارةِ ، كما أنه ابتعد على عكسِ ابْنِ طولونَ عن جموعِ الشعبِ المصرى بجيوشِهِ التى لم يكنْ للمصريين دورٌ بارزٌ في تكوينِهَا، على الرغمِ من تعدُّدِ جنسياتِهَا وكثرةِ أعدادِهَا؟ ودفاعِهَا قبلَ ذلك كلِّهِ عن استقلالِ بلادِنَا واستقرارِهَا ، مما جعلنا لانقابلُ أعمالَه وقد عانينا طويلاً منذ سقوطِ الدولةِ الطولونيةِ وحتى

استقلاله بشئوننا بنفس هذه الروح وهذا الحماس الذى قابلنا به أعمالَ أحمدَ بْنِ طولونَ وخُمَارَوَيْهِ .

فقلتُ له : إن الحكمَ على الفرقِ بين الإخشيدِ وابْنَ طولونَ يحتاجُ منى إلى أن أتعرَّفَ على المزيدِ من الأخبارِ والمزيدِ من المعلوماتِ التى لن تتوفَّرَ لي إلا بالقيامِ بجولةٍ طويلةٍ في شتى أرجاءِ الأراضى المصريةِ .

وصمتُّ أفكِّرُ قليلاً ، ثم رُحْتُ أكملُ حديثى قائلاً : حسنًا يانيلُ ، متى سترحلُ إلى جنوبى الوادى؟

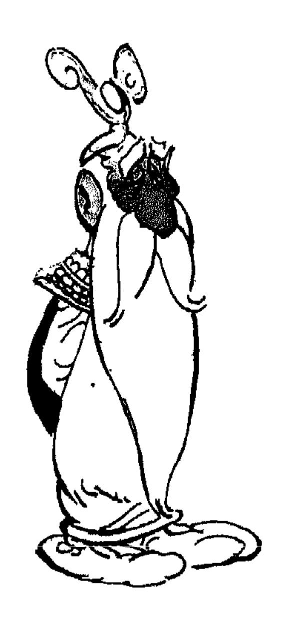
فقال : بعد ثلاثةِ أيامٍ أو أربعةٍ على الأكثرِ .

فقلت له : سأصحبُكَ إذن في هذه الرحلةِ وسأقضى وقتى من الآنَ وحتى موعدِ رحيلِنَا في التجوُّلِ مابين الفسطاطِ والقطائعِ والعسكرِ لأرقبَ كيف تسيرُ صورُ الحياةِ في أرجائِهَا .

وبالفعلِ وقبل أن يحلَّ عليَّ الظلامُ في هذه الصحراءِ الموحشةِ ، اتفقتُ مع نيلٍ على موعدِ لقائنَا على شاطىءِ النهرِ في الفسطاطِ لنمضىَ معًا إلى جنوبى الوادى ، وأسرعتُ أنطلقُ إلى حيث أقمتُ في منزلِهِ بالفسطاطِ ثلاثةَ أيامٍ كاملةٍ طُفْتُ خلالَها بالأسواقِ والحوانيتِ والطرقاتِ وشاهدتُ كيف تسيرُ الحياةُ في العاصمةِ المصريةِ تحتَ حكمِ محمدِ بْنِ طغج الإخشيدِ وعلمتُ من عشراتِ المصريين

الذين التقيتُ بهم الكثيرَ مما لم يقصَّه عليَّ نيلٌ .

وفي صباحِ اليومِ الرابعِ وبينما كنتُ أجدُّ في السيرِ لألحقَ بموعدى معه، توقفتُ أمامَ أحدِ الحماماتِ العامةِ التى وجدت بمصرَ من قبلِ الفتحِ العربىِّ بوقتٍ طويلٍ ، لكنها ازدادَتْ بعده انتشارًا حتى أنه يوجد اليومَ في الفسطاطِ وحدَها مايزيدُ عن الألفِ حمامٍ ، ولأننى لم أستطعْ مقاومةَ إغراءِ التمتعِ بحمامٍ ساخنٍ قبل بدءِ رحلتى الشاقةِ إلى الجنوبِ أسرعتُ متوجِّهًا إلى الداخلِ ، وبالقربِ من البابِ في إحدى الغرفِ المخصصةِ لخلعِ الملابسِ تركتُ ملابسى وانطلقتُ بشغفٍ بالغٍ إلى أحدِ أحواضِ المياهِ الساخنةِ حيث استرخيتُ تمامًا أستمتعُ بما تبعثُهُ المياهُ في جسدى من إحساسٍ بالهدوءِ والسكينةِ ، غير أنه سرعان ماتذكرتُ نيلاً وموعدى معه فنهضتُ من فورى إلى حيث توجدُ حجرةُ خلعِ الملابسِ ، وهناك وبعد ثلاثِ ساعاتٍ كاملةٍ من البحثِ المتواصلِ تأكدتُ تمامًا من ضياعِ ملابسى !



أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



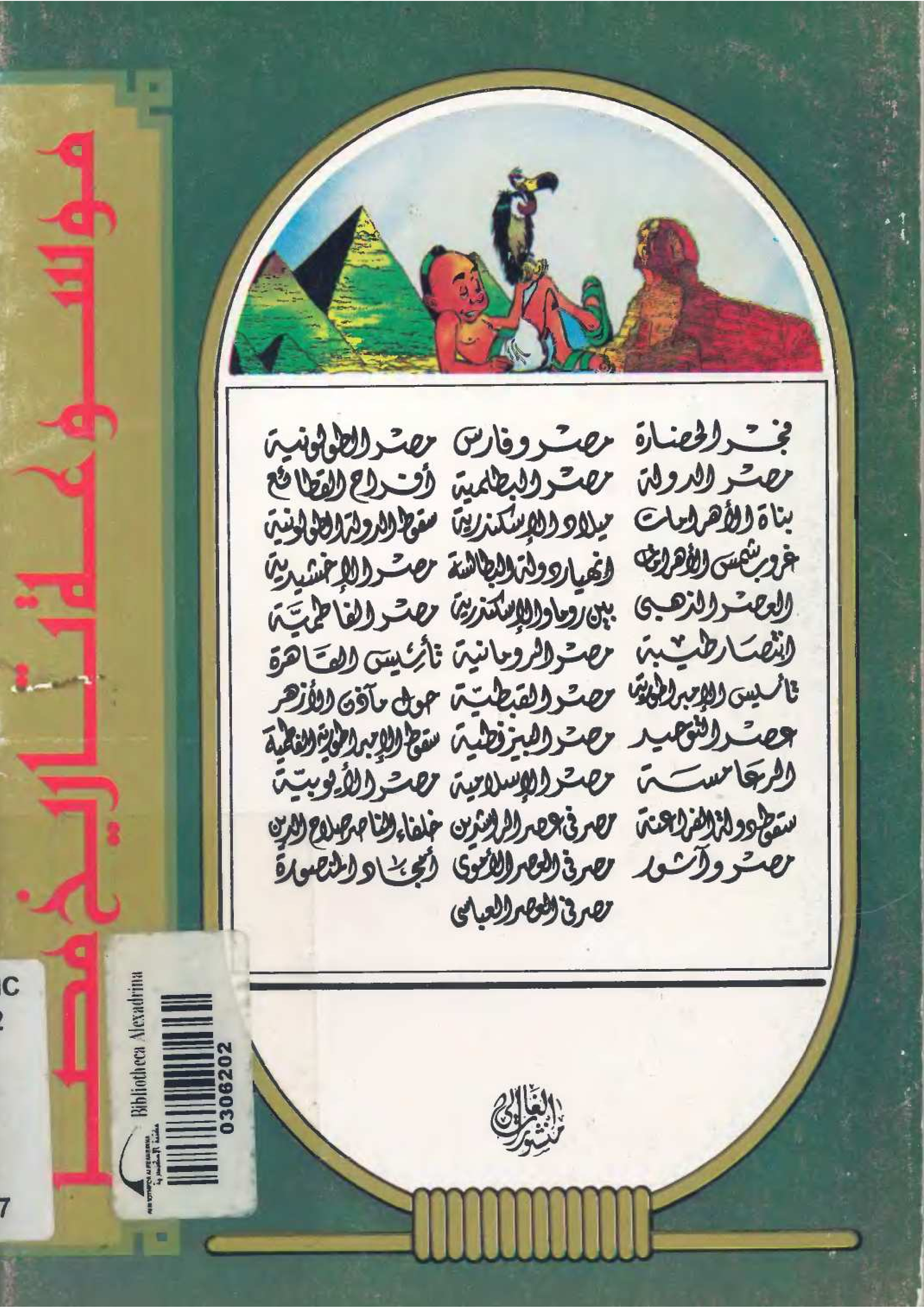
المكتب العربى للمعارف
١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى
ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة
ت: ٢٤٢١٥٢٦



الناشر



«نيل وتاريخ»


موسوعة تاريخ مصر
فجر الحضارة
مصر الدولة
بناة الأهرامات
غروب شمس الأهرامات
العصر الذهبي
انتصار طيبة
تأسيس الإمبراطورية
عصر التوحيد
الرعامسة
سقوط دولة الفراعنة
مصر وآشور
مصر وفارس
مصر البطلمية
ميلاد الإسكندرية
انهيار دولة البطالمة
بين روما والإسكندرية
مصر الرومانية
مصر القبطية
مصر البيزنطية
مصر الإسلامية
مصر في عصر الراشدين
مصر في العصر الأموي
مصر في العصر العباسي
مصر الطولونية
أفراح القطائع
سقوط الدولة الطولونية
مصر الإخشيدية
مصر الفاطمية
تأسيس القاهرة
حول مآذن الأزهر
سقوط الإمبراطورية الفاطمية
مصر الأيوبية
خلفاء الناصر صلاح الدين
أمجاد المنصورة
منشورات الغزالي
Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
03068202